دار المسناة الناصرية

دار علم وعلماء

الدكتور مصطفى جواد

احتوى الجزء الثامن من مجلة كلية الآداب هذه ، لسنة ١٩٦٠ ، فيما احتوى عليه من المقالات المفيدة ، على مقالة عنوانها « المدرسة الشرابية أو القصر العباسى فى قلعة بغداد » ، للاستاذ الفاضل ناجى معروف المعروف ، وقد حاول فيها أن ينفى كون هذه الدار الفخمة بكل معانى الفخامة القديمة « دار المسناة » التى أمر بانشائها الخليفة الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضىء بأمر الله الحسن العباسى « ٥٧٥ ـ ٦٢٢ » . وهو الرأى الذى ذهب اليه المحقق الماضى يعقوب السركيسى المتوفى سنة (١٩٦٠) وأيدته أنا فيه لما رأيته فيه من الصحة والاصابة اللتين لا مندوحة منهما ، فى الكشف عن تاريخ الآثار العربية الغامض .

استند الاستاذ الزميل ناجى فى نفيه المشار اليه آنفا الى اثبات أن هذه البناية هى بنيان مدرسة لا قصر ولا دار ، وكان ينبغى له أن يذكر معانى « الدار » فى الحضارة الاسلامية ، ويقابل بينها وبين المقصود بهذه الدار ، فان لم تلائم معنىً من معانيها ، وغاية من غاياتها عمد الى اثبات أنها « مدرسة » ، حسب ، واستحالة أن تكون غير ذلك .

فالدار فى الحضارة الاسلامية الاثرية تعنى ضروبا من الابنية والمنشآت والمؤسسات والعمارات ، لا تخفى عليه ، ولا يراد بها ضرب واحد ، فمنها دار السكنى ودار أستاذية دار الخلافة التى هى نوع من الدواوين ، وكذلك دار الوزارة ودار التشريفات ودار الرقيق ، ودار الحكمة ودار العلم وهاتان ثالثتان قديما ، ودار الحديث ودار القرآن المجيد ودار الشفاء أى المستشفى ودار الضرب ودار الضيافة ودار العامة ودار العميد ودار قاضى القضاة ودار كتب المدرسة أو المسجد أو الرباط ودار النيابة ودار النقابة ودار السلطنة

ودار المملكة ودار الخلافة ، ودار البطيخ ودار الخيل ودار الفيل ، ودار صناعة الجسر ودار الطراز ودار العدل ودار الرزق وغيرها • ومن أخبار الدور ما ذكره الخطيب البغدادى فى مقدمة تاريخه قال فى ذكر ورود رسل من ملك الروم بغداد على عهد المقتدر بالله سنة ٣٠٥ : « وأدخل رسل صاحب الروم من دهليز باب العامة الاعظم الى الدار المعروفة بخان الخيل ، وهى دار أكثرها أروقة بأساطين رخام ، وكان فيها من الجانب الايمن خمس مئة فارس عليها خمس مئة مركب ذهبا وفضة ، بغير أغشية ، ومن الجانب الايسر خمس مئة فرس ، عليها الجلال الديباج ، بالبراقع الطوال ، وكل فرس فى يدى شاكرى بالبزة الجميلة ، ثم أدخلوا من هذه الدار الى الممرات والدهاليز المتصلة بحير الوحش ، وكان فى هذه الدار من أصناف الوحش التى أخرجت اليها من الحير قطعان تقرب من الناس ••• ثم أخرجوا الى دار فيها أربعة فيلة مزينة بالديباج والوشى ، على كل فيل ثمانية نفر من السند والزراقين بالنار ••• ثم أخرجوا الى دار فيها مائة سبع : خمسون يمنة وخمسون يسرة ، كل سبع منها فى يد سباع ، وفى رؤوسها وأعناقها السلاسل الحديد ، ثم أخرجوا الى الجوسق المحدث وهى دار بين بساتين فى وسطها بركة رصاص قلعى ••• ثم أخرجوا من هذه الدار الى دار الشجرة وفيها شجرة فى وسط بركة كبيرة مدورة فيها ماء صاف •••[1] » •

وقد ذكرنا أن دار المسناة هذه ـ على حسب رأينا ـ قد أنشأها الناصر لدين الله ، وأنشأ فيها خزانة كتب جليلة ، لمفاوضة العلماء فيها ، فهى على التحقيق « دار علم » ولذلك كانت بنايتها أقرب الى بنايات المدارس منها الى البنايات الاخرى ، وقد اقتبس من تصميماتها المعمار الذى شيد المستنصرية[2] • ولاسيما الابهاء الذى توضع فيها خزانة الكتب أو تنضد فيها على المناضد تنضيدا • ومما يدل على أن دار المسناة هذه كانت دار علم حبر ذكره القفطى المؤرخ الاديب الوزير المشهور قال فى ترجمة برهان الدين أبى الرشيد مبشر بن أحمد بن على بن أحمد بن عمرو الرازى

---

(١) تاريخ بغداد ، للخطيب البغدادى « ١ : ١٠٢ ، ١٠٣ » •
(٢) دليل خارطة بغداد « ص ١٨٦ » طبعة المجمع العلمى سنة ١٩٥٨ •

الاصل ، البغدادى المولد والدار الحاسب :

« هذا رجل فى زماننا الاقرب ببغداد ، كان أوحد فى زمانه ، فاضلا كثير المعرفة بالحساب وخواص الاعداد والجبر والمقابلة وعلم الهندسة والهيأة وقسمة التركات ، وحوى من سائر العلوم طرفا ، وكان يقرأ عليه ويؤخذ عنه ، ولم يزل متصدراً لذلك ، وتميز فى أيام الناصر لدين الله أبى العباس أحمد ، وقرب منه ، واعتمد فى اختيار الكتب التى وقفها بالرباط الخاتونى السلجوقى وبالمدرسة النظامية ، وبدار المسناة[٣] ، فانه أدخله الى خزائن الكتب بالدار الخليفة ، وأفرده لاختيارها . وكان مقربا الى أولياء الدولة ، محببا عندهم ، محبا للعلوم ، وكسب المال الكثير ، ولم يزل على حاله فى الاقراء والافادة الى أن سيره الخليفة الناصر لدين الله فى رسالة الى الملك العادل أبى بكر[٤] بن أيوب عندما قصد بلاد الموصل ، فلقيه على نصيبين أو دينسر ، ومات هناك فى شهور سنة تسع وثمانين وخمسمائة . وكان مولده فى سنة ثلاثين وخمسمائة[٥] » .

فالمؤرخ محدو ومبعوث على المساءلة عن السبب فى اخراج الخليفة الناصر الكتب المختارة من دار الخلافة العباسية ، التى فيها قصوره ودوره للسكنى ، وتوزيعها بين ثلاث مؤسسات هى رباط زوجته سلجوقى خاتون السلجوقية الخلاطية[٦] ، والمدرسة النظامية المشهورة و « دار المسناة » ، والتاريخ نفسه يجيبه بأن ذلك انما كان لنشر العلم بين الناس ونيل الثواب ،

---

(٣) فى طبعة مصر من أخبار الحكماء ـ ص ١٧٧ ـ « وبداره المسناة » والظاهر أن الهاء فى « واعتمده » سقطت من السطر الذى يليه .

(٤) فى طبعة مصر « بن أبى بكر بن أيوب » ، وهو خطأ .

(٥) أخبار الحكماء « ص ١٧٧ طبعة مطبعة السعادة بالقاهرة » .

(٦) كان هذا الرباط على شاطىء دجلة فى الجانب الغربى من بغداد ، فوق محلة الخضر الياس الحالية ، وقد جرفته دجلة مع تربة السيدة المذكورة بعد أن اتخذه البكتاشية تكية لهم ، وقد ذكره نيبور الداينمركى السائح فى رحلته وكان قدم بغداد سنة (١١٨٠هـ) الموافقة لسنة ١٧٦٦ الميلادية . وكان قريبا منه مشهد عون ومعين الذى وصفه ابن جبير فى رحلته .

فدار المسناة كانت من المؤسسات التى أنشئت من أجل تلك الغـاية النبيلة الجليلة .

وكان وضع الناصر لدين الله الـكتب فى المؤسسات المقدم ذكرها قد جرى فى سنة ٥٨٩ بدلالة ما نقله ابن تغرى بردى فى بعض تواريخه ، قال فى حوادث السنة المذكورة : « وفيها بنى الخليفة الناصر لدين الله العباسى دار الـكتب بالمدرسة النظامية ببغداد ، ونقل اليها عشرة آلاف مجلد ، فيها الخطوط المنسوبة وغيرها[٧] » . واذ كنا نعلم أن المدرسة النظامية كان لها دار كتب منـذ زمن طويل أيقنـا أن دار الـكتب الناصرية كانت من بابة المضافات والزيادات ، فدار المسناة التى كانت خالية من الـكتب كانت أحق بكثرة الـكتب ، وعلى هذا الرأى نقدر ما وضع فيها من الـكتب بخمسة عشر ألف مجلد ، ولا نغالى فنرتفع الى عشرين ألفا أى الى الضعفين . وهذا العدد الضخم من الـكتب ينبغى أن يفكر المؤرخ البـارع فى البيوت التى تسـعها ، وتحتوى عليها ، وتكون المطالعة والجداول ومطـارحة الاقوال والمناظرات فيها ، اذا بعثت الحاجة الملحـة على ذلك الامر ، فاتساعها من مقتضيات السبب فى انشائها .

وبما قدمت من الابانة عن الغاية التى أنشئت من أجلها « دار المسناة الناصرية » التى هى القصر العباسى القائم أكثره اليوم فى جنوبى وزارة الدفاع ، يبطل قول الاستاذ ناجى معروف فى أول مقالته المشار اليها « لم يعرف على وجه التحقيق الغرض الذى شيدت من أجله العمارة المعروفة بالقصر العباسى ، فى قلعة وزارة الدفاع ببغداد ، وكل ما ثبت للباحثين أن القصر العباسى المذكور بناية عباسية تدل آثارها الباقية على فخامتها وجمالها وروعة هندستها وزخرفتها ولم يعرف من أنشأها ولا التاريخ الذى أنشئت فيه ، لانه لم يتسن للعلماء والباحثين الوقوف على التفاصيل الضرورية التى تمكنهم من معرفة حقيقتها وماهيتها لندور المراجع التاريخية عن بغداد فى

---

(٧) النجوم الزاهرة « ٦ : ١٣٢ » .

العصور المتأخرة[٨] » . وقد اعترف الاستاذ ناجى معروف بأنها كانت « دار علم للكتب[٩] » .

وبه أيضا ينتفي قوله بعد ذلك : « ولذلك يمكن أن نتساءل عن الاغراض التى أنشئت من أجلها هذه الحجر والغرف التى تطل على ساحة واحدة أو صحن واحد وعلى أروقة مزخرفة ، هل كانت تتخذ لسكنى الخليفة ونسائه أو أن نساء الخليفة وجواريه كن يستقبلن سيدهن الخليفة فى هذه الغرف الضيقة البسيطة الخالية من كوى الاضاءة والتهوية . أم ان الغرف الكبيرة التى كان يسكن فيها الخليفة الناصر لدين الله ونساؤه وحاشيته وأهل بيته قد نقضت وبنى مكانها هذه الغرف الصغيرة[١٠] ... » :

فهذا قول مرسل من الاقوال التى لا حادى عليها ، فمن قال للزميل الفاضل ان هذه الدار أعنى دار المسناة أنشئت لسكنى الخليفة وجواريه ، حتى يسائل تلك المساءلة ؟ وكيف استدل على أن المراد بكل دار فى التاريخ الاسلامى أن تكون خاصة بالسكنى وعيش الجوارى والحواشى ؟ فقد ذكرنا أنواع الدور من حيث استعمالاتها واتخاذاتها ؟ وهل عنده عدة مخططات لدور الخلفاء العباسيين ببغداد وفى أواخر عصرهم خاصة ، حتى يستند الى ما ادعى أنه تفنيد علمى فنى ؟ ولعله يدرس خطط بغداد فى العصور العباسية حتى يعلم أين كان الخلفاء يعيشون هم وذوو قرباهم ونساؤهم وأبناؤهم وبناتهم وجواريهم وخدامهم وخوادمهم وغير أولئك من حواشيهم ؟ انهم والناصر لدين الله منهم كانوا يسكنون فى دار الخلافة التى كانت جنوبى المستنصرية والنظامية على شاطىء دجلة وما جاور ذلك من الجهة الشرقية من بغداد ، قال ابن جبير وقد قدم بغداد فى عهد الناصر لدين الله وذلك فى سنة (٥٨٠هـ) يصف بغداد : « وأما الشرقية فهى اليوم (دار الخلافة) وكفاها بذلك

---

(٨) مجلة كلية الآداب « ج ٢ ص ٥٦ سنة ١٩٦٠ » .

(٩) قال فى أول مقالته : « ومما لاشك فيه أنها اتخذت معهدا علميا للتدريس ودار علم للكتب ردحا من الزمن » . « مجلة كلية الآداب ص ٥٧ » .

(١٠) المرجع المذكور « ص ٦٣ » .

شرفا واحتفالا ، ودور الخليفة مع آخرها ، وهى تقع منها فى نحو الربع أو أزيد ، لان جميع العباسيين فى تلك الديار ، معتقلين اعتقالا جميلا ، لا يخرجون ولا يظهرون ، ولهم المرتبات القائمة بهم ، وللخليفة من تلك الديار جزء كبير قد اتخذ فيها المناظر المشرفة ، والقصور الرائقة ، والبساتين الانيقة ... وله قيم على جميع الديار العباسية ، وأمين على كافة الحرم الباقيات من عهد جده وأبيه وعلى جميع من تضمه الحرمة الخلافية ، يعرف بالصاحب[١١] مجد الدين أستاذ الدار ، هذا لقبه ، ويدعى له أثر الدعاء للخليفة وهو قلما يظهر للعامة ، اشتغالا بما هو بسبيله من أمور تلك الديار وحراستها والتكفل بمغالقها وتفقدها ليلا ونهارا[١٢] » .

فدار الخلافة العباسية كانت فى عهد الناصر لدين الله « مع آخر » بغداد الشرقية ، وهى نحو الربع منها أو أزيد على رأى ابن جبير ورؤيته ، وفيها ما ذكره من دور وقصور ومناظر مشرفة وقصور رائعة وبساتين أنيقة ، فضلا عما لم يذكره ابن جبير من دواوين الدولة ومخازنها ومعتقلاتها لغير العباسيين ، وخزائنها ، ومرابطها واصطبلاتها ، وكان ابن جبير قد قال فى ذكر أبى الفرج بن الجوزى العالم الكبير المؤرخ الشهير : « ثم شاهدنا مجلسا ثانيا له ... بباب بدر فى ساحة قصور الخليفة وخص بالوصول اليه والتكلم فيه ليسمعه من تلك المناظر الخليفة ووالدته ومن حضر من الحرم[١٣] » . وقد كان قال : « ثم شاهدنا ... مجلس الشيخ الفقيه الامام الاوحد جمال الدين أبى الفضائل بن على الجوزى بازاء داره على الشط بالجانب الشرقى وفى آخره على اتصال من قصور الخليفة وبمقربة من باب البصلية آخر أبواب الجانب الشرقى[١٤] » . ومع تعيين ابن جبير دار الخلافة وتحديده اياها ، ذكر دار الناصر الجديدة التى هى (دار المسناة) وسماها قصراً ، ذكرها على أنها لا صلة لها بدار الخلافة لكونها فى الشمال ، قال :

---

(١١) المشهور فى التاريخ « ابن الصاحب » .
(١٢) رحلة ابن جبير « ص ٢٢٧ » . من طبعة ليدن .
(١٣) المرجع المذكور « ص ٢٢٢ » .
(١٤) المرجع المذكور » ص ٢٢٠ « .

« أبصرنا هذا الخليفة المذكور وهو أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بن المستضىء بنور الله أبى محمد الحسن بن المستنجد بالله أبى المظفر يوسف ، ويتصل نسبه الى أبى الفضل جعفر المقتدر بالله الى السلف فوقه من أجداده الخلفاء ـ رضوان الله عليهم ـ بالجانب الغربى أمام منظرته به[١٥] ، وقد انحدر عنها صاعدا فى الزورق الى (قصره بأعلى الجانب الشرقى على الشط)[١٦] » .

ان علم الخطط البغدادية أثبت ان القصر العتيق بل الدار العتيقة القائم أكثرها جنوبى وزارة الدفاع من القلعة البغدادية الداخلية العتيقة ، تلك الدار المقدم ذكرها غير مرة انما هى « دار المسناة » الناصرية ، وقد ورد ذكرها مذ ابتدىء بانشائها فى سنة ٥٧٦هـ[١٧] الى سنة ٦٩٦هـ ، فانقطع ذكرها بعدها لانقطاع ظهور التواريخ التى تذكرها ، وآخر خبر لها ذكره مؤلف كتاب الحوادث هو قوله فى السنة المشار اليها ـ أعنى سنة ٦٩٦ هـ ـ : قال « ثم أمر [السلطان غازان] بقتل مظفرالدين على بن علاء الدين صاحب الديوان فنفذ الى بغداد من قبض عليه واعتقله أياما ثم قتل ودفن فى دار المسناة التى بأعلى بغداد وعملت الدار رباطا ثم نقل منها ودفن عند والدته فى الرباط المجاور للعصمية[١٨] » .

وفى هذا الخبر انباء بأن « دار المسناة الناصرية » اتخذت بعد سنة ٦٩٦هـ رباطا أى خانقاه أى تكية للصوفية ، وهذا يثبت أنها لم تكن على شاكلة الدور التى اتخذها الخلفاء لسكناهم وجواريهم وخدمهم وحاشيتهم ، كما أومأنا اليه آنفا ، وذلك مما سهل جعلها رباطا ، ويثبت أيضا أن دور العلم كانت تشبه المدارس .

يقول الاستاذ ناجى معروف فى أول مقالته : « وكل ما ثبت للباحثين أن القصر العباسى المذكور بناية عباسية ... » فمن الباحثون الذين أشار

---

(١٥) أى بالجانب الغربى .

(١٦) المرجع المذكور « ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ » .

(١٧) مختصر الجزء الثامن من مرآة الزمان « ص ٣٦٠ طبعة حيدر أباد الدكن » سنة ١٩٥١ .

(١٨) كتاب الحوادث الذى سمي غلطا الحوادث الجامعة « ص ٤٩٤ » .

اليهم ؟ وكيف ثبت لهم أن البناية عباسية ؟ والاستاذ نفسه قد قابل بينها وبين المدرسة المرجانية التي هى مغولية الانشاء اسلامية[١٩] ، زيادة على مقابلته بينها وبين المدرسة المستنصرية ، ان الابتسار فى الحكم غير صحيح للمحاول نقض ما بناه البحث الطويل ، والدرس الجليل • فالصحيح أن يقال انها بناية اسلامية عتيقة ثم يبنى البحث شيئا فشيئا حتى يوصل الى كونها عباسية • هذه هى الطريقة الاولى العلمية فى البحث والجدال ، عند خلو الاثر من الكتابة والرموز ، والاشارة • والطريقة الثانية هى الالتجاء الى « علم الخطط » الذى أشرت اليه ، وقد قلت ان هذا العلم أثبت عند أهل الاختصاص أن هذه الدار هى « دار المسناة » التى انشأها الناصر لدين الله ، غير أن الاستاذ ناجى معروف يصر على ان دار المسناة كانت مدرسة فليست اذن هى دار المسناة ، وأغرب ما استدل به فى جملة أدلته على دعواه هو أن فيها زخارف من طراز ممتاز كزخارف المستنصرية وزخارف المرجانية[٢٠] •

ومما يستدرك عليه أنه لم يقابل بين مدخل المدرسة المستنصرية ومدخل القصر العباسى الذى هو من جهة شاطىء دجلة ، ولم يذكر الفلسفة الفنية العمارية ، فى كون باب القصر شارعا على الشاطىء لا على الجهات الاخرى ، ولم يذكر لنا أن مدرسة من المدارس وفيها المستنصرية كان مدخلها من الشاطىء ، ذلك لم يذكره لانه ينقض عليه شيئا مهما من المقابلة والموازنة اللتين لم تكن للقارىء حاجة اليهما ، لما قدمنا من بيان الغاية التى أنشئت من أجلها « دار المسناة » •

قال الاستاذ ناجى فى نفى أن يكون هذا المسمى « القصر العباسى » قريبا من أرض دار الامير تتر من أمراء الدولة السلجوقية أو مبنيا عليها : « كما أنه ليس ثمة أسس أو جدران تتعارض مع الاسس القديمة ••• وفى هذا دلالة كافية على أنه لم يحدث عليها أى بناء آخر ، مما لا يخامرنا شك فى أن هذا المكان ليس دار تتر التى نقضها الخليفة المقتفى لامر الله العباسى سنة ٥٤٧ والتى أنشأ عليها الناصر لدين الله دار المسناة ، كما يذهب الى ذلك

---

(١٩) مجلة كلية الآداب « ص ٦٦ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٧ » •
(٢٠) مجلة كلية الآداب « ص ٧٣ ، ٧٥ » •

الزميل الدكتور مصطفى جواد ، وبعبارة أخرى ليست هذه العمارة دار المسناة التى أنشأها الناصر لدين الله العباسى[٢١] » .

وهذا كتاب مديرية الآثار القديمة المؤلف فى القصر المذكور ، قد جاء فيه « يشاهد فى الجهة الشرقية الجنوبية من القصر آثار جدار طويل ومجار مهمة ، مما يدل على أنه كان يقوم هناك بعض المبانى التى ضاعت معالمها ، تحت أسس وزارة الدفاع الحالية ... يشاهد فى الشط وقت القيظ فى محاذاة مدخل القصر الذى بحثنا عند أنقاض مسناة قديمة تبعد عن المسناة الحالية نحو متر ونصف متر ، كما تبعد عن مدخل القصر نحو خمسين مترا ، وزد على ذلك يشاهد على بعد مئة متر من هذه الانقاض بقايا أخرى من المسناة القديمة ، بعض أقسامها قائمة فى محلها مع فتحة منتظمة تدل على أنها كانت محل النزول الى الشط والصعود منه . ان وجود هذه المسناة مع هذا المدخل على بعد يتجاوز المائة متر من المدخل الحالى ، لا يترك مجالا للشك فى أن تلك الجهة أيضا لم تكن خالية من المبانى وان كانت معالمها قد انطمست تحت أسس المبانى المتفرقة المشيدة هناك بقصد خدمة حاجات الجيش المتنوعة[٢٢] » .

فليتأمل الاستاذ الفاضل ناجى معروف هذه الاقوال ليتحقق ابتعاده عن القصد فى تعرضه لبحثى فى تاريخ دار المسناة ، وحرصه على تأييد رأيه ولو بانكار ما يعسر انكاره ، فدار تتر اذن يجوز أنها كانت فى الارض التى جاوزت مائة متر بين القصر الحالى والشاطىء العتيق ، ويجوز أيضا أن يكون من آثارها الجدار الطويل والمجارى المهمة التى وردت فى كتاب مديريه الآثار ، ويجوز أنها كانت متصلة بأرض القصر العباسى من الشمال .

هذا وانى لم أذكر اتصال « دار الامير » بدار المسناة الناصرية اعتمادا على قول خططى قلته اجتهادا منى حتى ينسبه الاستاذ ناجى الىّ ، كما فهم من قوله ، « كما يذهب الى ذلك الزميل الدكتور مصطفى جواد » بل اعتمدت

---

(٢١) المرجع المذكور « ص ٦٢ » .

(٢٢) القصر العباسى فى القلعة « ص ٢٠ ، ٢١ » من منشورات مديرية الآثار العامة .

على نص تاريخى ورد فى مرآة الزمان فى حوادث سنة ٥٧٦ ، قال مؤلفه : « وفيها ابتدأ الخليفة فى عمارة المسماة بالجانب الغربى من بغداد وتسمى دار بير وهى قائمة الى هلم جرا[٢٣] » . وفى طبعة هذا الجزء بالهند ما يفيد سقوط كلمة بين (عمارة) و (المسناة) وهى كلمة (دار) على تحقيقنا ، و (المسماة) هى تصحيف (المسناة) فتكون العبارة « وفيها ابتدأ الخليفة فى عمارة دار المســـناة » . أما « الجانب الغربى » فتصحيف « الجانب الشرقى[٢٤] » . و (بير) تصحيف (تتر) وهذا المجلد من مختصر مرآة الزمان قد طغى عليه التصحيف طغيانا يصعب معه اصلاحه على غير المتخصصين ولولا معرفتى بكثير من أمراء الدولة السلجوقية ما اهتديت الى أن هذا المصحف الاسم هو « تتر » .

وكنا نعلم أن « دار المسناة » كانت فى أعلى الجانب الشرقى من بغداد الشرقية فى أواخر العصور العباسية ، وذلك بتكرار ورود ذكرها فى كتاب « الحوادث » ، واستوجب ذلك منى أن أبحث عن دار تتر لاختبر صحة اتصال أرضها بأرض دار المسناة ، على ما أفاده خبر مرآة الزمان ، فوجدت فى أخبار سنة ٥٤٧ من المنتظم فى التاريخ تأليف ابن الجوزى ما نصـــه « ونفذ أستاذ الدار ومعه من ينقض فنقضوا دار تتر التى على المسناة[*] » . وقد قال من قبل فى حوادث سنة ٥٤٣ : « وكان البقش نازلا فى دار تتر ، فلما مضى اليه الغزنوى رسولا رحل الى ظاهر البلد[٢٥] » . ثم قال فى حوادث سنة ٥٥٢ : « فلما كان يوم الخميس رابع عشر جمادى الاولى ركب الخليفة فى الماء الى تحت دار تتر ثم ركب وسار يتفقد السور من أوله الى

---

(٢٣) مختصر الجزء الثامن من مرآة الزمان « ٢٢٩ طبعة شيكاغو سنة ١٩٠٧ » .

(٢٤) يحدث هذا التصحيف أحيانا لغفلة الناسخ وسهوه لـكثرة تكرار هذين الجانبين ، جاء فى وفيات الاعيان فى ترجمة أبى النجيب عبدالقاهر السهروردى « وبنى رباطا على الشط من الجانب الغربى ببغداد » . مع أن رباطه بالجانب الشرقى بالتحقيق والتأكد قديما وحديثا ، بدلالة وجود قبره اليوم بازاء دار الضباط والمدرسة المنسوبة اليه عنده قديما وحديثا .

(*) المنتظم « ١٠ : ١٤٧ » .

(٢٥) المرجع المذكور « ص ١٣٣ » .

آخره ، وعـاد من دجلة يتفقد[٢٦] » . ثم قال فى حوادث سنة ٥٥٦ : « وخرج الخليفة صبيحة السبت وكان ركوبه فى الماء وصعوده عند مسناة السور فركب هنـــاك وخرجوا الى الصيد[٢٦] » . والخبر الاخير خاص بالخليفة المستنجد بالله ، وبه علمنا أن المسناة المرادة معرفتها ، التى نسبت اليها الدار هى مسناة السور فى أعلى الجانب الشرقى .

وأما قول سبط ابن الجوزى ان دار المسناة « هى القائمة الى هلم جرا » أى الى سنة وفاته ٦٥٤ فهو قول العالم بها ، لانه قال فى حوادث سنة ٦٥٤ : « وفيها غرقت بغداد الغرق الشنيع الذى لم يعهد مثله ، بحيث انتقل الخليفة الى دار المسناة[٢٧] ، ودخل الماء دار الوزير ودار الخليفة وخرج خالى محيى الدين (ابن الجوزى) من دار الخليفة ، وضرب خيمة على تل عال وجلس فيها بأهله ، وغرقت خزائن الخليفة والمناثر ، وجرى شىء لم يجر مثله وكان ذلك فى شهر ربيع الاول[٢٨] » .

فالتاريخ ان سكت عن « دار المسناة » أو لم نسمع صوته لخفوته ، فعلم الخطط يطالبنا بدار المسناة التى جلجل اسمها فى تاريخ بغداد ، فى عدة عصور ، وكانت حاوية لالوف كتب نفيسة فى مختلف العلوم والفنون ، وكانت سببا فى اثارة الحسد واضطغان الاحقاد ، وايغار صدور الجهلة من الذين لم يقربهم الخليفة الناصر لدين الله من أدعياء العلم حتى اتهمه بعضهم بما نحن ناقلوه من معجم الادباء ، قال ياقوت : « كامل بن الفتح بن ثابت ابن سابور أبو تمام الضرير ، من أهل بادرايا ، سكن بغداد ، وكان أديبا فاضلا ذكيا جدا ، قرأ فنون العلم وحفظ الاشعار والاخبار وأخذ أهـل الأدب ببغداد عنه علما كثيرا ، وكان متهما فى دينه ، مات سنة ٥٩٦ ، وكان يسكن باب الازج وصاهر بنى زهمويه الـكتاب ، وله ترسل وشعر وقد سمع شيئا من الحديث ... وقيل انه كان يدخل على الناصر ويحاضره

---

(٢٦) المرجع المذكور « ص ١٧٥ » .
(٢٦) المرجع المذكور « ص ١٩٨ » .
(٢٧) وردت فى « ص ٧٩٤ » من طبعة الهند « دار المنشأة » ، وكانت فى الصفحة ٦٣٧ منه قد تصفحت الى « دار المنسا » .
(٢٨) مختصر المرآة « ج ٨ ص ٧٩٤ » .

ويخلو معه وانه علمه علم الاوائل وهون عليه علم الشرائع والله أعلم[٢٩] ... » ، وكان الامام الناصر أجل من أن يحتاج الى الدفاع عنه ودفع هذه التهمة الباطلة عنه .

وقد ذكر ابن الساعى كاملا هذا وسماه « ابن أبى الفتح » لا « ابن الفتح[٣٠] » ولم يذكر حرفا من تلك التهمة الخبيثة التى نقلها ياقوت معلقا لها باسم امام كبير من أئمة المسلمين قضى زهاء نصف قرن فى خدمة العرب والاسلام . ومما استدل به الاستاذ ناجى المعروف على رأيه فى هذه العمارة وجود الفرق بينها وبين دور العباسيين القور ، ووسيعات القصور ، فى سامرا وبغداد ، ومع أن هذا الاستدلال كان مقويا من أصله ، نستغرب منه التمسك به ، فالخلفاء القدماء كالموكل والمعتضد كانوا من ملوك الارض تجبى اليهم عشرات ملايين الدنانير ، من أكثر أصقاع الارض المسكونة ، مع أن الناصر لدين الله كان فى أيام ايعازه بانشاء « دار المسناة » لا يعادل بيت ماله بيت مال واحد من ملوك الاطراف فى عصره كصلاح الدين الايوبى ، ومحمد بن ايلدكز المعروف بالبهلوان ، يضاف الى ذلك أنه كان ذا سياسة مالية حكيمة جدا ، حتى اتهم بالبخل ، ولولا سياسته المالية البارعة ما استطاع المستنصر بالله حفيده بناء المستنصرية ، فهو الذى كنز الاموال وخزنها وجمعها وحرص عليها ثم وجدها ابنه الظاهر وحفيده المذكور غنيمة باردة ، فأنفقا ما شاء لهما الانفاق ، ومن ذلك نفقات المستنصر على المدرسة المستنصرية وقد بلغت زهاء مليون دينار .

وقد أشار الاستاذ الفاضل ناجى المعروف غير مرة الى أنه نشر فى مجلة التفيض مقالة فى تفنيد دعوى أن هذه البناية هى دار المسناة الناصرية ،

---

(٢٩) معجم الادباء « ٥ : ٢٠٨ » من طبعة « مرغوليوث » .

(٣٠) الجامع المختصر « ٩ : ٣٠ » . وذكره الشيخ زكى الدين المنذرى فى التكملة لوفيات النقلة ولم يذكر ما احتقبه ياقوت مع قائله وذكر انه دفن بمقبرة الامام أحمد بن حنبل « الورقة ٦ من نسخة المجمع المصورة » . وذكره الامام شمس الدين فى تاريخ الاسلام ولم يعز اليه شيئا من ذلك ، « نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ، الورقة ٩٤ » . وذكره الصفدى فى نكت الهميان « ٢٣١ » وكررت التهمة فى بعض نسخه نقلا من معجم الادباء .

وهو الرأى الذى ذكرته فى مجلة سومر ، وقد قرأت المقالة يومئذ فلم أر فيها ما يستحق التعليق ، لان تشقيقه الكلام كان مبنيا على الموازنات التى سماها « فنية » وليس فى مقالتى ما ينفيها حتى يثبتها هو ويتخذها دليلا ، وكان أدعى ما فيها الى مطارحة الآراء دعواه أن البناية المذكورة هى « المدرسة الشرابية الشرفية » التى أنشأها ببغداد شرف الدين اقبال الحبشى الشرابى ، مقدم الجيوش العباسية ، وهى دعوى تدل على أن المدعى الفاضل لم يكمل مستنداته ـ كما يقال اليوم ـ فى خطط بغداد . فشرط الدخول فى مثل هذه المباحثة الكلام على خطط بغداد أولا .

وقد أعاد الاستاذ ناجى تلك الدعوى أعنى دعوى أن البناية العتيقة المذكورة مرات آنفا هى « المدرسة الشرابية » ، وقد نقل الزميل الفاضل من كتاب الحوادث فى أخبار سنة ٦٢٨ قول مؤلفه : « وفى شوال تكامل بناء المدرسة التى أنشأها شرف الدين اقبال الشربى بسوق العجم بالشارع الاعظم بالقرب من عقد سور سوق السلطان مقابل درب الملاحين[٣٠] ... » . ورحم الله هذا المؤرخ الذى عين موضع المدرسة الشرابية هذا التعيين المبين ، بحيث يجب على الباحث عن موضعها اليوم أن يعين ما يأتى : سوق العجم ، والشارع الاعظم ، وسوق السلطان ، وسور سوق السلطان ، وعقد سور سوق السلطان ودرب الملاحين ، فهل عين الاستاذ ناجى معروف « الشارع الاعظم » ؟ وهل عين سوق العجم ؟ انه حاول أن يعين سوق السلطان ، وسوق السلطان طويل ، ولم يكن على شاطىء دجلة[٣١] حتى تكون المدرسة الشرابية هناك فتحل محل « دار المسناة » ثم ان ذكر المؤرخين اسم « سوق السلطان » يعنى مقصدين بحسب مقام الذكر » فالمقصد الاول هو المعنى

---

(٣٠) كتاب الحوادث « ص ٢٤ » .

(٣١) كل ما عرف من قربه من دجلة هو ما قاله محب الدين محمد بن النجار المؤرخ فى ترجمة محمد بن محمد البلخى الزاهد المتوفى سنة ٦٠٢ : « قدم بغداد واستوطنها الى حين وفاته ، وكان مقيما بسوق السلطان فى مسجد له ، قريبا من دجلة ، منقطعا عن الخلق ... » . « الجواهر المضية فى طبقات الحنفية ٢ : ٢١٨ » وقد ذكره الاستاذ ناجى معروف لظنه أنه يفيده فى استدلاله .

الاصلى أى كونه سوقا للبيع والشراء فى دكاكينه وخاناته[٣٢] ، والمقصد الثانى وهو الاصطلاح الخططى ، ويراد به محلة سوق السلطان وكانت محلة كبيرة من محال بغداد الشرقية ، قال ابن الاثير فى حوادث سنة ٦٠١ : « وفى تاسع رمضان كانت فتنة بين أهل سوق السلطان والجعفرية منشؤها أن رجلين من المحلتين اختصما وتوعد كل واحد منهما صاحبه فاجتمع أهل المحلتين واقتتلوا فى مقبرة الجعفرية فسير اليهم من الديوان من تلافى الامر وسكنه[٣٣] ... » . وقال ابن الساعى فى حوادث السنة المذكورة : « وفى ليلة السبت تاسعه وقعت فتنة بين أهل سوق السلطان والجعفرية منشؤها خصومة رجل منهم مع آخر من أهل سوق السلطان وتوعد كل منهما الآخر فتنافر أهل المحلتين بعد العشاء الآخرة واقتتلوا بباب الجعفرية فى المقبرة تلك الليلة الى آخر الليل ويوم السبت[٣٤] ... » . وقال ياقوت فى « درب منيرة » من معجم البلدان : « درب منيرة بشرقى بغداد فى أواخر السوق المعروفة بسوق السلطان مما يلى نهر المعلى وهو عامر الى الآن منسوب الى منيرة مولاة لمحمد بن على بن عبدالله بن عباس » . وقد أيد ابن عبدالحق البغدادى قول ياقوت الحموى وذلك فى كتابه « مراصد الاطلاع » . وقال ابن الديثى فى ترجمة علي بن الانجب بن أبى البقاء العلوى : « وأم بالناس فى الصلاة بالمسجد الجديد الذى أمر ببنائه سيدنا ومولانا الامام المفترض الطاعة على سائر الانام الناصر لدين الله أمير المؤمنين ـ خلد الله ملكه ـ بسوق السلطان مقابل سوق العميد[٣٥] » .

فالمراد بسوق السلطان فى الخطط البغدادية المحلة التى نشأت حول سوق السلطان طغرلبك وحياله ، ولاشك أنها كانت قريبة من باب السلطان

---

(٣٢) يراجع المنتظم « ٩ : ٢١٨ ، ١٠ : ١٣٣ » .
(٣٣) الكامل « ج ١٢ ص ٧٩ » .
(٣٤) الجامع المختصر « ٩ : ١٤٨ ، ١٤٩ » .
(٣٥) ذيل تاريخ بغداد « نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ٥٩٢٢ الورقة ٢١٨ » .

الذى هو باب المعظم الحالى[٣٦] من أبواب بغداد الشرقية العتيقة ، وقد قدمنا أنها من الغرب قاربت دجلة وفى الشرق اتصلت بمحلة الجعفرية[٣٧] من الشرق والجنوب وبمحلة نهر المعلى من الجنوب والمدرسة المستنصرية وان كانت قرب الحظائر فى محلة سوق الثلاثاء فهى قريبة من محلة نهر المعلى وربما كانت منها بدلالة قول عزالدين عبدالحميد بن ابى الحديد المدائنى فى وصف المستنصرية :

وما كنا نصدق أو رأينا بأن الارض تسكنها الدرارى
مخيمة على نهر المعلى فدجلة لا المنيفة فالضمار[٣٨]

وذلك يعنى أن محلة سوق السلطان اشتملت قديما على أرض أكثر محلة الميدان والبارودية وتبة الكرد والقرەغول والحيدرخانة وجديد حسن باشا • فالمدرسة الشرابية كانت فى موضع من محلة سوق السلطان الوسيعة هذه ، المداخلة لعدة محلات فى هذا اليوم •

يقول مؤلف الحوادث ان المدرسة الشرابية بسوق العجم بالشارع الاعظم ، فهل عين الاستاذ ناجى معروف « الشارع الاعظم » ؟ ويقول مؤلف الحوادث انها بسوق العجم فهل بين الاستاذ الزميل موضع سوق العجم ؟ لا لم يفعل ذلك بل عمد الى التساهل على نفسه وقال : « فاذا كانت سوق

---

(٣٦) لم يبق من الباب شيء ، وكان قد جدد فى أيام العثمانيين تجديدا غير هيأته الدفاعية العتيقة ، ثم أزيل قبل عدة سنين وصار مدرجة للناس بين قاعة الشعب ومصلحة الركاب ، وبقى اسم « باب المعظم » على موضعه كما بقي اسم « العقد » على عدة محلات ببغداد كعقد القشل أى محلة القشل ولم يبق من العقد آجرة واحدة •

(٣٧) ذكرنا فى دليل خارطة بغداد « ص ١٦٤ ، ٣٠٠ » أنه مما انشيء من المحلات فى بغداد فى العصر السلجوقى « المحلة المقتدية » نسبة الى الخليفة المقتدى بأمر الله و « المحلة الجعفرية » نسبة الى ابنه جعفر بن المقتدى وان المقتدية كانت بموضع محلة التوراة الحالية ، والجعفرية كانت فى موضع محلة تحت التكية ويمكن أن يقال ان المحلتين كانتا فى موضع المحلتين الجديدتين لصعوبة تحديد المحلات العتيقة • وذكرنا أن مقبرة الجعفرية تشبه أن تكون موضع دار المعلمات الابتدائية وجامع الخاتون القائمين اليوم • ومنه يفهم أن الجعفرية كانت بلصق المقتدية من الشمال والغرب •

(٣٨) مساجد بغداد « ص ٩٣ » •

السلطان هى سوق الميدان التى بالقرب من باب المعظم ومسجد سوق السلطان فى أغلب الظن هو جامع القلعة الحالى الذى بناه الناصر لدين الله أدركنا أن المدرسة الشرابية يحتمل جدا أن تكون هى القصر العباسى ، واذا كانت هذه المدرسة قريبة من درب الملاحين أو مقابل درب الملاحين ، كما ورد ذلك فى الحوادث فان درب الملاحين لابد أن يكون مما يلى دجلة على مقربة من بهو أمانة العاصمة ، وهذه المشرعة قريبة جدا من القصر العباسى أى انها قريبا جدا من المدرسة الشرابية ، على أن الذى يؤيد هذا الرأى ويقويه أن المسافة بين باب القصر العباسى وبين نهر دجلة تبلغ نحو ثمانين مترا ولذلك فمن المحتمل جدا أن يكون فيها أو على مقربة منها درب الملاحين الذى بنيت المدرسة الشرابية قبالته أو على مقربة منه[٣٩] » .

وهكذا قرب الاستاذ ناجى معروف البعيد وبعد القريب وجمع بين أطراف النواحى ليعين موضع المدرسة الشرابية قسرا ، ولم يتطرق كما قلنا الى البحث عن موضع « الشارع الاعظم » و « سوق العجم » اللذين هما الاصل فى التعيين ، مضافا الى أنه لم يفصح بوجهة « درب الملاحين[٤٠] » كيف كانت أمن الشرق الى الغرب أم من الغرب الى الشرق أم من الجنوب الى الشمال ؟ فمن البديهى أن الدروب التى يسلكها الملاحون الى دجلة تكون احدى نهايتى كل منها شاطىء دجلة ، لان الملاح حين يسلك الدرب فهو اما قاصد الى دجلة واما خارج منها ، فكيف تكون المدرسة الشرابية مقابل درب الملاحين اذا لم تكن فى الجهة المعاكسة لجهة دجلة ؟! ثم أين تعيين الشارع الاعظم فى أواخر العصور العباسية ؟ وبه وبسوق العجم وعقد سور سوق السلطان يصح التعيين ؟ .

---

(٣٩) مجلة كلية الآداب « ص ٨١ » .

(٤٠) ذكرت فى حاشية الحوادث « ص ٢٤ » أن درب الملاحين يوافق درب مستشفى المجيدية اليوم أى الجمهورى الحالى ، الممتد من باب المعظم الى دجلة . قلت هذا قبل ثمان وعشرين سنة ، والظاهر أنه كان دخل السور لا خارجه ، غير أن وجهته واحدة من الشرق الى الغرب كأكثر الدروب النافذة الى دجلة أو اليها .

الشـــارع الاعظـــم

كان الشارع الاعظم شارعا واسعا طويلا يمتد بالجانب الشرقى من بغداد من باب الشماسية التى هى أعلى الصليخ الحالية الى آخر الجانب الشرقى من بغداد الذى فيه جامع القصر المسمى أيضا جامع الخليفة وهو الجامع الذى بناه المكتفى بالله فى أواخر القرن الثالث للهجرة ، وفى أرضه تقوم اليوم « منارة جامع سوق الغزل » الجبارة المشهورة • ولا نترك ذلك قولا مجردا بل ندعمه بالنصوص التاريخية ، قال الصولى فى أخبار سنة ٣٢٩ : « ثم وافى الديلم ودخل كورتكين من باب الشماسية وذلك فى يوم الخميس لسبع بقين من ذى الحجة ، فجعل العامة يدعون له وهو يرد عليهم ومنع أصحابه أن يعرضوا العامى ، فما زال يسلك الشارع الاعظم من الجانب الشرقى ، الى أن وافى دار الخليفة[٤١] » •

وذكر ابن خلكان نقلا من تاريخ ابن أبى طاهر أن عمرو بن الليث الصفار الذى خرج على الخليفة المعتضد بالله اسر وحمل الى بغداد سنة ٢٨٨ وأركب جملا ذا سنامين وأدخل بغداد فاشتقها فى الشارع الاعظم الى دار الخليفة بالعصر الحسنى[٤٢] » •

وقال عريب القرطبى فى حوادث سنة ٣٠١ : « وفى هذه السنة ركب أبو العباس محمد بن المقتدر من القصر المعروف بالحسنى وبين يديه لواء عقده له أبوه المقتدر على المغرب ومعه القواد كلهم والغلمان الحجرية وجماعة الخدم حول ركابه • وعلي بن عيسى عن يمينه ومؤنس الخادم عن يساره ونصر الحاجب بين يديه فسار فى الشارع الاعظم ورجع فى الماء والناس معه ، فاعترضه رجل بمربعة الخرسى فنثر عليه دراهم مسيفة[٤٣] ••• »

---

(٤١) الاوراق « أخبار الراضى بالله والمتقى لله ص ٢٠٧ » •

(٤٢) الوفيات « ٢ : ٤٨٧ ترجمة يعقوب بن الليث الصفار » • قال الخطيب البغدادى : « حدثنى أبو الحسين هلال بن المحسن قال : كانت دار الخلافة التى على شاطىء دجلة تحت نهر معلى قديما للحسن بن سهل وتسمى القصر الحسنى » • « تاريخ بغداد ١ : ٩٩ » •

(٤٣) صلة تاريخ الطبرى « ص ٢٣ من طبعة مصر » •

وقال فى خبر قدوم رسل من ملك الروم بغداد فى سنة ٣٠٥ : « فيها دخل مدينة السلام رسل ملك الروم ورئيساهم شيخ وحدث ، ومعهما عشرون علجا ، فأنزلوا الدار التى كانت لصاعد • ووسع عليهم فى الانزال والوظائف ثم أدخلوا بعد أيام الى دار الخليفة من باب العامة • وجىء بهم فى الشارع الاعظم ، وقد عبى لهم المصاف من باب المخرم الى الدار[٤٤] ... » •

وكان الشارع الاعظم من الشمال الشرقى متصلا بسوق السلاح قال الصولى فى حوادث سنة ٣٢٤ : « وأحضر فى يوم الجمعة لثلاث عشرة خلت من ذى الحجة القاضى عمر بن محمد ومعه أبو أيوب السمسار فنظر الى ابن ياقوت ميتا لا أثر فيه وأنه مات حتف أنفه وصلى عليه أبو أيوب ودفن فى مقبرة لهم فى الشارع الاعظم فوق سوق السلاح[٤٥] » • ونقل ياقوت الحموى من بعض كتب المرزبانى أن أبا بكر بن دريد اللغوى الاديب الشاعر المشهور المتوفى سنة ٣٢١ دفن بالمقبرة العباسية من الجانب الشرقى فى ظهر سوق السلاح من الشارع الاعظم[٤٦] • وهو أحد الاقوال فى مدفنه ، وقال ابن خلكان : « ودفن بالمقبرة المعروفة بالعباسية من الجانب الشرقى فى ظهر سوق السلاح بالقرب من الشارع الاعظم[٤٧] » • وهذا قول القاضى الاكرم علي بن يوسف القفطى[٤٨] • وكان درب السقائين فى شمالى الجانب الشرقى من بغداد متصلا بالشارع الاعظم ، قال الجهشيارى فى أخبار الامير وحاجبه الفضل بن الربيع : « وكان الفضل ينزل فى الشارع الاعظم بازاء درب السقائين ، وكان لما عزم على بناء منزله هذا وهب له الرشيد من مال الاهواز خمسة وثلاثين ألف ألف درهم معونة على بنائه[٤٩] » ثم قال :

---

(٤٤) المصدر المذكور « ص ٣٣ ، ٣٤ » •
(٤٥) الاوراق « أخبار الراضى بالله والمتقى لله ص ٧٠ » •
(٤٦) معجم الادباء « ٦ : ٤٨٤ طبعة مرغوليوث الاولى » •
(٤٧) الوفيات « ٢ : ٧٦ » •
(٤٨) انباه الرواة على أنباه النحاة « ج ٣ ص ٩٨ » •
(٤٩) الوزراء والكتاب « ص ٢٣٦ من طبعة الصاوى » •

« ولما استتر الفضل بن الربيع صار زهير بن المسيب الى داره فى شارع الميدان فسكنها رعاية لحرمته ولحقوق كانت بينه وبين الفضل وأراد بما فعل حفظها عليه . فلما صار فيها أقام فى حجرة منها تعرف بدار الذهب[٥٠] ... » . وبهذا علمنا أن شارع الميدان كان متصلا بالشارع الاعظم ان لم يكن قسما منه .

ولما بنى سور بغداد الشرقية[٥١] الذى أعلى أبوابه باب السلطان الذى هو باب المعظم الحالى المقدم ذكره ، انقسم الشارع الاعظم الى قسمين قسم فى داخل سور بغداد الشرقية وقسم آخر وهو الاعلى يبتدىء من باب السلطان ممتدا نحو الشمال فى طريق الاعظمية الحالى أو على مقربة منه حتى يصل الى الشماسية أى الصليخ الحالية ، كما أشرنا اليه آنفا ، وقال ياقوت الحموى فى مادة « التاج » فى الكلام على تكامل دار الخلافة العباسية حول القصر الجعفرى الذى صار الى الحسن بن سهل فسمى القصر الحسنى : « ثم انتقل الى المأمون فكان من أحب المواضع اليه وأشهاها لديه ، واقتطع جملة من البرية عملها ميدانا لركض الخيل ، واللعب بالصوالجة ، وحيرا لجميع الوحوش وفتح له بابا شرقيا الى جانب البرية وأجرى فيه نهرا ساقه من نهر المعلى ، وابتنى مثله قريبا (كذا) منازل برسم خاصة وأصحابه سميت المأمونية وهى الآن الشارع الاعظم فيما بين عقدى المصطنع والزرادين[٥٢] » . وأيد هذا الرأى بل القول ابن عبدالحق الحنبلى قال فى « نهر المعلى » من المراصد : « ولا أثر للنهر الآن والمحلة المذكورة هى من عقد الحديد الى عقد المصطنع فى الشارع الاعظم ومن الريحانيين وباب النوبى الى باب جامع القصر الى العقدين » .

---

(٥٠) المرجع المقدم ذكره « ص ٢٤٨ » .

(٥١) بدىء بانشائه فى خلافة المستظهر بالله سنة ٤٨٨ وأكمل على عهد ابنه المسترشد بالله سنة ٥١٧ « مختصر مناقب بغداد ص ١٧ » والمنتظم « ٩ : ٨٥ ، ٢٤٣ » .

(٥٢) معجم البلدان فى « التاج » . والمأمونية هى محلة عقد القشل والدهانة والهيتاويين وصبابيغ الآل الحالية .

فعقد المصطنع قد ورد فى قول ياقوت وقول ابن عبدالحق أنه من الشارع الاعظم المذكور غير مرة ، وهو عنده الحد الشرقى على التقريب لمحلة نهر المعلى ممتدا حتى عقد الحديد ، والضلع المقـــابلة لتلك الضلع الشرقية هى عنـــده الممتدة من الريحانيين وباب النوبى من أبواب دار الخلافة الى باب جامع القصر المعروف أيضا بجامع الخليفة ثم بجامع الخلفاء ثم بجامع سوق الغزل الذى أخذه شارع بغداد الجديد الاوسط المعروف بشارع الجمهورية .

فالآن نحتاج الى تتبع الشارع الاعظم فى شرق الجامع المذكور نحو الشمال ، قال ياقوت الحموى فى مادة « القـــراح » من معجم البلدان : « ... تخرج من رحبة جامع القصر مشرقا حتى تتجاوز عقد المصطنع وهو باب عظيم فى وسط المدينة(٥٣) ، فهناك طريقان أحدهما يأخذ ذات اليمين الى ناحية المأمونية وباب الازج(٥٤) ، والآخر يأخذ ذات الشمال مقدار رمية سهم الى درب يقال له درب النهر عن يمين القاصد الى قراح بن رزين(٥٥) ، ثم يمتد قليلا ويشرق ، فحينئذ يقع فى قراح بن رزين(٥٥) ، فاذا صار فى وسطه(٥٥) فعن يمينه درب النهر واللوزية وعن يساره المحلة المقتدية(٥٦) التى استحدثها المقتدى بالله ، ثم يمر فى هذه المحلة ـ أعنى قراح بن رزين ـ نحو شوط فرس جيـد ، فحينئذ ينتهى الى عقـد(٥٧)

---

(٥٣) يعنى أنك تسلك اليوم سوق وعلاوى الشورجة للحبوب وغيرها حتى تصل ملتقى طريق عقد القشل بمحلة قاضى الحاجات ، وقد سمي العقد المذكور أى عقد المصطنع بعقد القشل جمع القشلة أى المسلحة ، فى أيام العثمانيين ، فالعقد باق . فى التسمية الى اليوم ، والمحلة تسمى « محلة عقد القشل » .

(٥٤) يعنى محلة عقد القشل والهيتاويين وصبابيغ الآل وما اليهن . وهن المأمونية ويعنى محلة باب الشيخ وما حولها وهى محلة باب الازج .

(٥٥) ذكر فى أول المادة أن قراح بن رزين كان أقرب المحلات الى وسط بغداد ، وهو يوافق موضع سوق حنون بحسب أقواله الآتية .

(٥٦) ذكرنا آنفا أن المقتدية كانت فى محلة التوراة الحالية تقريبـا القريبة من محلة قنبر علي .

(٥٧) هو عقد أول محلة قنبر علي الحالية اليوم .

هناك وباب ، فاذا خرج منه وجد طريقين أحدهما يأخذ ذات الشمال يفضى الى المحلة المعروفة بالمختارة ، فيتجاوزها الى مقبرة باب بيبرز[٥٨] بطولها طالبا للشمال ، فاذا انتهت المحلة[٥٩] وقع فى محلة تعرف بقراح ظفر : اسم رجل[٦٠] ... » .

اذن كان الشارع الاعظم يطابق من الجنوب سوق أبى سيفين فمحلة قنبر علي فمحلة القرەغول فمحلة تبة الكرد والقسم الشرقى من محلة الميدان والبارودية وقمر الدين حتى يتصل بباب السلطان ليتصل منه بقسمه الاعلى المفصول بالسور ، الممتد الى باب الشماسية القديمة ، أى الصليخ الحالية ، مطابقا لطريق الاعظمية أو قربه ، وهذا يستوجب أن تكون « المدرسة الشرفية الشرابية » قريبة من الشارع الاعظم وواقعة فى سوق العجم الذى هو فرع من الشارع الاعظم ، ومقابلة لدرب الملاحين المؤدى من الشرق الى دجلة ، وعلى مقربة من سور سوق السلطان لا باب السلطان .

سوق العجم

أعيد ما ذكره مؤلف كتاب الحوادث فى خبر افتتاح المدرسة الشرابية من أخبار سنة ٦٢٨ قال : « وفى شوال تكامل بناء المدرسة التى أنشأها شرف الدين اقبال الشرابى بسوق العجم بالشارع الاعظم بالقرب من عقد سور سوق السلطان مقابل درب الملاحين[٦١] » .

وقد ذكر مؤلف الحوادث « سوق العجم » مرة ثانية فى حوادث سنه « ٦٣٠ » قال : « وفيها وصل الامير حسام الدين أبو فراس بن جعفر بن أبى فراس الذى كان أمير الحاج فى الايام الناصرية ... فلما وصل الى مدينة السلام حضر عند نصير الدين ابن الناقد نائب الوزارة فخلع عليه

---

(٥٨) يعنى محلة المهدية والفضل وما اليهما من تبة الكرد والسيد عبدالله .

(٥٩) يعنى محلة المختارة المقدم ذكرها .

(٦٠) معجم البلدان فى مادة « قراح » .

(٦١) الحوادث الذى سميناه غلطاً الحوادث الجامعة « ص ٢٤ » .

ومضى الى داره بسوق العجم[٦٢] ... » .

وهذا الخبر وان كان خلوا من دلالة على موضع السوق المذكور ، يبين أن السوق لم يكن على دجلة ولا قريبا منها ، قربا يجعله مما يلى شاطئها ، وقد عينه المؤرخ بعقد سور سوق السلطان لقربه منه بدلا من أن يعينه بالشاطئية أى كونه على الشاطىء أو قريبا منه ، وقد ذكر المؤلف المذكور « سور سوق السلطان » فى حوادث سنة ٦٣٥ قال : « وفيها فى تشرين الاول جاء رعد هائل ، وبرق عظيم ووقعت صواعق كثيرة ، منها صاعقة أصابت انسانا بظاهر سور سوق السلطان قريبا من سوق الخيل ، كان على بغل فأحرقت بعض صدره ونصف البغل فوقعا ميتين[٦٣] » .

ومن البديهى بعد تأمل هذه الاخبار أن يكون سوق الخيل خارج سور بغداد وقريبا من سور سوق السلطان ، وأن يكون عقد سور سوق السلطان قريبا من باب السلطان الذى هو باب المعظم الحالى فى أعلى بغداد الشرقية العتيقة المسورة قديما حتى القرن الثالث عشر للهجرة ، ويؤيد كون سوق الخيل خارج سور بغداد يومئذ ما ورد فى ترجمة شرف الدين علي بن عبدالله بن هبة الله العباسى المنصورى المتوفى سنة ٦٨٥ قال ابن رافع : ودفن من الغد بمقبرة الامام أحمد بن حنبل بعد أن صلى عليه بظاهر بغداد بباب سوق[٦٤] الخيل[٦٥] » .

وقد ذكر ابن الفوطى موضع المدرسة الشرابية وعده من سوق السلطان الذى ذكرنا أنه كان محلة كبيرة وسيعة[٦٦] ، أيا مئذ ، قال فى ترجمة

---

(٦٢) المرجع المذكور « ص ٤٣ » .
(٦٣) المرجع المذكور « ص ١٠٠ » .
(٦٤) فى المطبوع « سويق الخيل » .
(٦٥) منتخب المختار « ص ١٥١ » .
(٦٦) ذكرنا أنها كانت تشمل أكثر موضع محلة الميدان والبارودية وتبة الكرد والقرەغول والحيدرخانة وجديد حسن باشا ، ولم يكن للمحلات الا حدود تقديرية تقريبية ، تعرف باكثرية الدور لا بحدود ولا بأرقام ، فالتداخل بين المحلات قائم فى الحقيقة ، الا اذا كان لها أبواب وعقود معلومة تفتح وتغلق .

بعض خزان الكتب : « مجد الدين أبو الحسن على بن أحمد بن هبة الله يعرف بابن الماوردى ، الواسطى الفقيه الخازن ، كان فقيها فاضلا ، سافر فى صباه الى خراسان وما وراء النهر وسمع ببخارى من الفقيه جمال الدين المعروف بكوى خرذمندان واستوطن بغداد وكان خازن الكتب بالمدرسة الشرفية بخان زياد من سوق السلطان ، سمعت عليه وكتبت منه ونعم الشيخ كان[٦٧] » . فهذا خبر يشير الى أن المدرسة الشرابية كانت فى قسم من محلة سوق السلطان عرف بخان زياد ، كان مشهورا فى أواخر القرن السابع للهجرة ، كما دل عليه كلام ابن الفوطى ، فخان زياد اذن كان فى سوق العجم وسوق العجم من محلة سوق السلطان ، وكان قريبا فى بعض جهاته من عقد سور سوق السلطان ، وكانت المدرسة الشرابية هناك مقابل درب الملاحين .

وفى كل ما نقلت من الاخبار لم يذكر فى خبر من الاخبار أن المدرسة الشرابية ، كانت على دجلة ، ولا مما يلى دجلة ، وليس من المعقول أن يغفل المؤرخون ذكر اشرافها على دجلة وذكر كونها فى حيز شاطئها لو كانت المدرسة الشرابية فى موضع القصر العباسى . ثم لو كانت المدرسة فى مثل هذه الفخامة فى الريازة والهندسة والاحكام لكرّر المؤرخون ذكرها كما كرروا « دار المسناة » وجعلوها واسطةً ووساطة لتعيين المواضع الاخرى ، كما قدمنا نقله من الاخبار وأحسب أن للاستاذ الفاضل ناجى معروف من الاذعان للحقيقة وحب الحق لا يدعه مصرا على ذلك التعيين المرسل الذى لا ينطبق على الواقع الخططى الذى نحن ملزمون برعايته قبل كل نظر تاريخى أو فنى . أجل يستطيع الاستاذ ناجى أن يبحث فى الاخبار عن خبر يفهم منه أن دار المسناة هدمت وبنى فى موضعها بناء جديد ينطبق عماريا على ما أراده وما نعته ، وحينئذ لا أستجيز لنفسى التعرض له ولا الاستدراك عليه ، فان الغاية من كل ذلك معرفة الحقيقة الخططية .

---

(٦٧) تلخيص معجم الالقاب « ج ٥ الترجمة ٣٦٧ من تراجم الميم » .

أما « المدرسة الشرابية » فتكون على أقرب الاحتمالات أو التقديرات الخططية المبنية على النصوص ، التى قدمت نقلها ، فى موضع « الجامع المرادى » المعروف بالمرادية[٦٨] سابقا ، فى محلة الميدان الحالية ، وعلى هذا يكون تقديري السابق لدرب الملاحين بأنه يوافق درب مستشفى المجيدية اليوم[٦٩] الممتد من باب المعظم الى دجلة ، أعلى من موضعه المقدر آنفا ، لان الاخبار التى ذكرتها تثبت أنه كان داخل السور لا خارجه ، ومع هذا فهو فى تقدير موضعه من حيث العلو والسفل ، لم يخرج عن كونه ممتدا من الشرق الى الغرب ، وتكون المدرسة الشرابية فى رأسه الشرقى ، وهو المعنى المستفاد من قول مؤلف الحوادث : « مقابل درب الملاحين » ، فيكون درب الملاحين ، على هذا التقدير مخترقا قديما أرض القلعة الداخلية الحالية حتى يصل الى دجلة ، ويكون ابتداؤه من تحت باب وزارة الدفاع الاعلى ، واذا قدرنا أن المدرسة الشرابية كانت فى موضع أعلى من موضع المسجد المرادى أو فى شرقه قليلا ، فلا يقدم ذلك ولا يؤخر من كون المدرسة الشرابية على مسافة من دجلة تخرجها عن أن تكون فى حيزها وحريمها وجوارها وشاطئها ، على الضد مما هو عليه اليوم القصر العباسى الفخم ، وحسبك بعد كل ذلك أنه لم يذكر أحد من المؤرخين أن المدرسة الشرابية كانت على

---

(٦٨) قال المرحوم العلامة السيد محمود شكرى الآلوسى : « جامع المرادية : من مساجد الرصافة الشهيرة ، وهو عن جامع الازبك نحو غلوة سهم عن شمال الداخل من باب بغداد ... والجامع منسوب الى مراد باشا أحد وزراء الدولة العثمانية . كان واليا فى بغداد من قبل السلطان سليم الثانى ، تولى ولاية بغداد سنة ٩٧٨ وكان مقدما شجاعا كريما ، محبا للخير تقيا صالحا ، وعند قدومه الى دار السلام بنى هذا المسجد وقد أرخ بناءه الشاعر الشهير بالفضولى (كذا) صاحب الديوان التركى ... » . « مساجد بغداد ٦٣ ، ٦٤ » . وقد ذكر بناء هذا الجامع المستشرق الفرنسى كليمان هوار فى « تاريخ بغداد » بالفرنسية وذكر أن الشعر لفضلى بن فضولى لا لفضولى .

(٦٩) أى مستشفى الجمهورية الحـــالى ، وقولى « اليوم » أردت به سنة ١٩٣٢ .

دجلة كما هو حال دار المسناة .

وأحسب أن الذى حمل الاستاذ ناجى معروف على ذلك القول الخططى الغريب فى تعيين موضع المدرسة الشرابية هو تساهله فى مثل هذا الامر ، كما تساهل فى تعيين موضع المدرسة البشيرية حين قال : « وفى بغداد شرعت حظية المستعصم المعروفة بباب بشير سنة ٦٤٩ = ١٢٥١ ببناء المدرسة البشيرية على دجلة بالجانب الغربى من بغداد[٧٠] ... » . ولم تكن المدرسة البشيرية على دجلة ، بل كانت تجاه محلة قطفتا المجاورة لمقبرة الشيخ معروف الكرخى ، قال مؤلف الحوادث فى أخبار سنة ٦٥٣ : « وفيها فتحت المدرسة البشيرية بالجانب الغربى من بغداد تجاه (قطفتا) التى أمرت ببنائها حظية الخليفة المستعصم أم ولده أبى نصر ، المعروفة بباب بشير وجعلها وقفا على المذاهب الاربعة على قاعدة المدرسة المستنصرية[٧١] ... » .

ولكى نوضح للقارىء هذا التساهل ولا نقول هذا الوهم نذكر المسافة التى كانت محلة قطفتا تبعدها عن دجلة ، قال ياقوت الحموى : « قطفتا : بالفتح ثم الضم ، والفاء ساكنة وتاء مثناة من فوق ، والقصر ، كلمة أعجمية لا أصل لها فى العربية ، فى علمى ، وهى محلة كبيرة ذات أسواق بالجانب الغربى من بغداد ، مجاورة لمقبرة الدير التى فيها قبر الشيخ معروف الكرخى - رضى - بينها وبين دجلة أقل من ميل وهى مشرفة على نهر عيسى ، الا أن العمارة بها متصلة الى دجلة ، بينهما القرية : محلة معروفة[٧٢] ... » .

فبين محلة قطفتا ودجلة مسافة نحو من ميل ، والمدرسة البشيرية تجاه قطفتا ، والميل أربعة آلاف ذراع بالذراع السوداء التى لا تقل عن خمسة

---

(٧٠) مجلة كلية الآداب « ج ٣ ص ٨٩ ، ٩٠ ، سنة ١٩٥٨ » .
(٧١) كتاب الحوادث « ص ٣٠٧ » .
(٧٢) معجم البلدان فى مادة « قطفتا » .

وأربعين سنتيمترا ، فالمسافة بين المدرسة البشيرية ودجلة يومئذ لا تقل عن كيلو متر ونصف كيلو متر ، وأية كانت المسافة فالمدرسة البشيرية لم تكن على شاطىء دجلة ولا فى حيزها ولا فيما يقرب منها .

ومن تساهله ـ حفظه الله ـ فى نقل النصوص التاريخية ما ذكره فى كتابه القيم « تاريخ علماء المستنصرية » فقد قال فى الصفحة ٢٩١ عند الكلام على شيوخ ابن الفوطى : « وعفيف الدين[٧٣] بن ميمون الحلى

---

(٧٣) الرجل الذى كان يتردد الى النقيب صفى‌الدين ابن الطقطقى مؤلف التاريخ الفخرى وغيره من التواريخ هو فى الحقيقة « عزالدين أبو الفضل يونس بن يحيى بن عبدالله الخالدى النيلى الخطيب » لا عفيف‌الدين ابن ميمون الحلى ، كما ذكر الاستاذ ناجى معروف فى كتابه المذكور ، قال ابن الفوطى : « عزالدين أبو الفضل يونس بن يحيى بن عبدالله الخالدى النيلى الخطيب ، كان شيخا عالما حسن الاخلاق ، خطب بالنيل وكان حفظة للاخبار وله مداخلة مع الاكابر والاصحاب واستوطن بغداد ، وسكن بالمسجد المجاور لدار القرآن بالمستنصرية وكان يتردد الاصحاب اليه ، وهو لطيف الكلام ، حسن النادرة ، مأمون الصحبة ... وكان يتردد الى حضرة مولانا صفى‌الدين بن طباطبا وتجتمع معه وتجرى لنا أوقات حميدة (توفي) سنة ثلاث وتسعين وستمائة » .

أما عفيف‌الدين بن ميمون الحلى فقال فى سيرته : « عفيف‌الدين أبو بكر أحمد بن محمد بن محمد بن ميمون الحلى النحوى ، كان عالما بالنحو والتصريف وله فيهما تعليق وتصنيف » . ولم يذكر أنه رآه ولا أنه كان معاصرا له ، الا أن الاستاذ الفاضل ناجى وهب لابن ميمون الحلى بعض ترجمة « عزالدين يونس الخالدى » ، وفعل كذلك مع جماعة من المحدثين والمدرسين والنظار فى كتابه القيم المذكور ، وألصق بهم غير سيرهم سهوا من غير تعمد ، وذلك لخطأ ناشىء من اختلال تجليد الجزء الرابع من كتاب تلخيص معجم الالقاب ، فقد نقل منه الى كتابه طائفة من التراجم وقع فى قسم منها ذلك الوهم وأمثاله ، وقد أوجبت الامانة الادبية علينا تنبيه على ذلك ، ولولا الامانة ما خططنا فى ذلك حرفا .

المجاور لدار القرآن بالمستنصرية ، كان يتردد الى النقيب صفى الدين بن طباطبا ويجتمع معهم ابن الفوطى » . والصحيح أن الرجل الذى أراده الاستاذ الفاضل كان يسكن بالمسجد المجاور لدار القرآن المستنصرية ، فلما حذف الاستاذ كلمة « المسجد » ان كان ذلك عمدا ، وهو غير الظاهر ، فلا يهمنا أن نعلم السبب ، لان ذكر مسجد مجاور لدار القرآن مهم جدا فى الخطط والتاريخ ، فمنه يستفاد أن الجامع الآصفى الحالى فى الرأس الشرقى للجسر العتيق يقوم على أرض كانت مشتركة بين دار القرآن المستنصرية ومسجد مجاور لها ، ومن ذلك ينشأ سؤال : أجامع المستنصرية هو أم مسجد مستقل عنهـــا ؟

ان صح أنه جامع المستنصرية فهو يناقض ما ذكره الاستاذ الفاضل ناجى معروف فى الصفحة ٢٦١ وما يليها من أن جامع المستنصرية هو فى الجهة الجنوبية المطلة على النهر بين ربعى الشافعية والحنفيـــة وبين رصيف المدرسة وصحن المدرسة أى ساحتها الداخلة » . وأيا كان ذلك فهذا البحث خارج عن صدد مطارحتنا .

هذا وأختم ايضاحى هذا بأن « دار المسناة الناصرية » هى القصر العباسى القائم اليوم فى جنوبى وزارة الدفاع من القلعة الداخلية العتيقة وقد ثبت ذلك عندي بتضافر الاخبار وموائل الآثار ، ودلائل الخطط ، ولم نجد خبرا يفهم منه أنها زالت أو انهدمت أو هدمت وبنى فى موضعها بنيان آخر ، وأختمه كذلك بان المدرسة الشرابية الشرقية ، كانت خارجة عن حيز دجلة الشرقى ، وقد تكون فى موضع المسجد المرادى فى محلة الميدان الحالية أو فى شرقه ، ويجوز أن تكون أعلى منه أو أسفل منه قليلا ، وأن تلك المدرسة لم تكن من الفخامة والريازة والاشتهار بحيث تعيّن بها الاخبار ، وتضاف اليها الانباء فى تعيين الحوادث ، كما كانت دار المسناة الناصرية ، وأن دار المسناة كانت فى موضع رفيع بالنسبة الى مواضع بغداد وأبنيتها ، كما هو حال القصر العباسى ، ولولا ذلك لهدمها الغرق وضعضعتها الرطوبة كما فعلا بأكثر آثار العباسيين ببغداد ، ولا نذكر ها هنا الايدى الناقضة

الهادمة التى أزالت جملةً من الآثار ، ونهبت كل شيء فيها حتى الآجر أو الاحجار ، وفى مثل فعلها المنكر قال علي بن بسام العبرتى الشاعر يخاطب بعض الوزراء الظلمة :

بجنبـــك داران مهدومتـــان ودارك ثالثـــة تهـــدم
فليت الســـلامة للمنصـــفين تدوم فكيف لمـــن يظلـــم ؟